

سُورَةُ التَّجْوِيزِ

حِينَ تَنْكَشِفُ الْأَرْبَاحُ
وَالْخُسَائِرُ فِي مِيزَانِ الْأَبَدِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ التَّغَابُنِ

حين تنكشف الأرباحُ والخسائرُ في ميزان الأبد



تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

اليوم الذي نعرف فيه مَنْ رَبِّحَ حَقًّا

ليست كلُّ خسارةٍ خسارة، وليست كلُّ غنيمةٍ غنيمة، وليس الإنسان في هذه الحياة قادراً دائماً على أن يعرف القيمة الحقيقية لما يدخل يده وما يفلت منها؛ لأننا نحسب الأشياء ونحن واقفون داخل الزمن، ونزنها بموازين اللحظة، وننظر إليها بعيونٍ لم ترَ نهاية الطريق بعد. قد يظنُّ المرءُ أنه ربح حين جمع، وهو في الحقيقة يراكم أسباب خسارته، وقد يظنُّ أنه خسر حين فاتته شيء من الدنيا، بينما تكون تلك الفواتة نفسها نجاةً أدخرها الله له وراء ستار الغيب. وقد يخرج إنسان من صفقة الحياة مثقلاً بالأموال والأسماء والمناصب والتصفيق، ثم يكتشف في اللحظة التي تتطفيء فيها زينة المشهد أنه خرج من العالم أفقر مما دخل إليه، ويغادر آخر وقد أخذت منه الأيام كثيراً، واستنزفته المحن، ومرَّ على قلبه من الفقد ما جعله يبدو في أعين الناس منكسر الحظ، فإذا انكشفت الحقيقة كان هو الرابع الذي لم يكن يعرف حجم أرباحه. ومن هنا يجيء اسم هذه السورة كأنه صدمةٌ في وعي الإنسان: التغابن؛ ذلك اليوم الذي تنهار فيه أسعار الأشياء التي خدعنا، وترتفع فيه قيمة الأشياء التي استصغرناها، ويُكشَف في الحساب النهائي بعد أن ظلَّ البشر طوال أعمارهم يتبادلون أحكاماً مؤقتة عن النجاح والفشل، والثراء والفقر، والعزة والضياع.

وسورة التغابن لا تنتظر حتى نهاية السورة لتحديثنا عن ذلك اليوم، بل تبدأ من أبعد نقطة يمكن أن يبدأ منها الوعي: من الكون كله وهو يسبح، ومن الملك كله وهو لله، ومن الحمد كله وهو لله، ثم تنزل بنا من آفاق السماوات والأرض إلى سرِّ الإنسان، ومن الخلق إلى الاختيار، ومن الصورة إلى المصير، ومن الإعلان إلى الخفاء، حتى إذا أعادت بناء رؤيتنا إلى الوجود أخبرتنا أن هناك يوماً ستجتمع فيه هذه الخيوط جميعاً في عقدة واحدة، ويظهر فيه معنى الأشياء كما هي عند الله لا كما كانت تبدو لنا. وهذا

من جمال البناء القرآني؛ فالتغابن لا يمكن أن يفهم ما لم يفهم أولاً من يملك، ومن يعلم، ومن خلق، وإلى من المصير. إنك لا تستطيع أن تعرف الخسارة الحقيقية قبل أن تعرف صاحب الميزان، ولا تستطيع أن تحدد معنى الربح قبل أن تعرف الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، ولا تستطيع أن تحكم على رحلتك وأنت تتعامل مع الدنيا كأنها المشهد الوحيد، بينما القرآن يفتح لك الجدار الأخير ويقول: وراء هذه الحياة حسابٌ آخر، وهناك فقط ستستقر الأسماء على مسمياتها، فيُسَمَّى الربح ربحاً والخسران خسراناً بلا خداع.

لهذا تبدو سورة التغابن، على قصرها، سورةً تعيد ترتيب الاقتصاد الداخلي للروح؛ فهي تسأل الإنسان من غير أن تصوغ السؤال صراحة: ما الذي تعتبره ثروة؟ وما الذي تخشى فقده؟ وأين وضعت قلبك؟ وعلى أي شيء بنيت طمأنينتك؟ وما الذي لو أخذ منك شعرت أن حياتك قد انهدمت؟ إنها لا تحتقر الدنيا، لكنها تنتزع منها سلطة تعريف النجاح. ولا تنكر المال والأهل والأولاد، لكنها تضعهم في مواضعهم الدقيقة من الخريطة: نعم قد تتحول إلى فتنة، ومحوبات قد تصبح أبواب امتحان، وأشياء قريبة من القلب قد تقف أحياناً بين الإنسان وبين ما هو أبقي لقلبه. وهي لا تدعونا إلى الجفاء مع الحياة، بل إلى أن نجبها من الموضع الصحيح؛ أن تكون في اليد لا في مقام الإله داخل القلب، وأن نستعملها ولا نستعبد لها، وأن ندرك أن كل شيء فيها عابر إلا ما اتصل بالله.

ولعلَّ أعمق ما تفعله هذه السورة أنها تحرر المؤمن من وهم السيطرة. نحن نجب أن نتصور أننا نملك أطراف حياتنا، وأن تخطيطنا يحمي مستقبلنا، وأن قوتنا تمنع الانكسار، وأن ذكاءنا يستطيع أن يفاوض الأقدار، ثم يأتي قوله تعالى في قلب السورة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، فتغير المسألة كلها. القرآن لا يعد المؤمن بأن الطريق سيخلو من المصائب، ولكنه يعده بشيء أعمق: أن قلبه لن يترك بلا هداية وهو يعبر المصيبة. وهذه مرتبة من الرحمة قد لا ينتبه إليها الإنسان؛ فليس أعظم العطاء دائماً أن يُرفع عنك الحدث المؤلم، بل قد يكون أن تُعطى قلباً يعرف كيف يمر من خلاله دون أن يضيع، وكيف يرى الله وراء حجاب الأسباب، وكيف يحفظ يقينه حين تشقق صور الحياة من حوله.

وما بين افتتاح السورة بالتسبيح وخاتمها بالدعوة إلى التقوى والإنفاق تتشكل رحلة إنسانية كاملة. يبدأ الإنسان مخلوقاً داخل كون يسبح، ثم يُذكر بأنه مسؤول عن اختياره، ثم يُعرض أمامه تاريخ المكذبين حتى لا يتوهم أن رفض الحقيقة بلا ثمن، ثم يُنقل إلى مشهد البعث والجمع ويُقال له إن هناك يوماً اسمه يوم التغابن، ثم يُعلم كيف يتعامل مع المصيبة، وكيف يعيد النظر في أقرب دوائر حياته: الأزواج والأولاد والأموال، وكيف يفهم العفو والحذر والفتنة، ثم ينتهي إلى أمر شديد الصفاء: اتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا، وأطيعوا، وأنفقوا. كأن السورة تريد في النهاية أن تستزع الإنسان من فوضى الحسابات الصغيرة إلى بساطة السؤال العظيم: ماذا بقي بينك وبين الله؟

إننا إذن لا ندخل سورة التغابن لنبحث عن تأملات متناثرة حول آيات متجاورة، وإنما لنسافر داخل هندسة كاملة للرؤية؛ رؤية تجعل الكون محراباً، والإنسان مسؤولاً، والتاريخ شاهداً، والبعث يقيناً، والمصيبة امتحاناً للقلب، والأهل والمال اختباراً للولاء الداخلي، والإنفاق تحريراً للنفس من شئها، والآخرة اللحظة التي تراجع فيها دفاتر العمر كلها. وسنحاول في هذه الرحلة ألا نقف عند ظاهر الألفاظ وحده، ولا أن نغادره إلى خيال لا يسنده السياق، بل نصت إلى نظم الآيات، وإلى انتقالاتها، وإلى الكلمات التي اختارها الوحي دون غيرها، وإلى ذلك الخيط الخفي الذي يصل أول السورة بآخرها، حتى نرى أن «التغابن» ليس اسم يوم في المستقبل فحسب، بل مفهوم يعيد تفسير الحاضر كله؛ فمن عرف اليوم ما الذي سينكشف هناك، استطاع أن يصحح صفقاته هنا قبل أن يُغلق السوق.

وربما كان أجمل ما يمكن أن ندخل به إلى هذه السورة سؤالاً واحداً نضعه في سرائرنا ونحمله معنا من أول آية إلى آخر آية: لو كشفت الآن القيمة النهائية لكل ما أطارده، ولكل ما أخشاه، ولكل ما أحن على فقدته، ولكل ما أفرح بامتلاكه، فهل سأظل أعيش بالطريقة نفسها؟ إن سورة التغابن تريد أن تمنحنا شيئاً من ذلك الكشف قبل فوات الأوان؛ أن تجعلنا نرى الآخرة ونحن في الدنيا، لا رؤية العين، وإنما رؤية الميزان؛ حتى لا نحتاج يوم الحقيقة إلى أن نكتشف متأخرين أننا أمضينا أعمارنا نحرس خسائرها ونخاف على ما لم يكن في الحقيقة أرباحاً.

الفصل الأول

الكون الذي يسبح، والإنسان الذي يمتحن

من حقيقة الملك إلى سريرة القلب

يبدأ القرآن هذه السورة من حيث ينبغي لكل قصة إنسانية أن تبدأ: لا من الإنسان، بل من الله؛ لا من همونا الصغيرة، بل من الحقيقة الكبرى التي تحتضن الوجود كله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قبل أن تحدثك السورة عن خسارتك وربحك، عن أهلك ومالك، عن المصيبة التي ستطرق بابك، وعن اليوم الذي ستتكشف فيه الحقائق، تنقلك إلى مشهد لا يكاد الخيال يستطيع الإحاطة به: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. كل هذا الوجود الذي يبدو لنا صامتاً ليس صامتاً، وكل هذه المادة التي نظنها جامدة ليست خارج العبودية، وكل ذرة تراها وكل ذرة لا تراها منخرطة في حقيقة كونية هائلة: أنها لله. السماء ليست فراغاً محايداً، والأرض ليست مسرحاً متروكاً للعبث، والنجوم ليست أضواء معلقة في ليل بلا معنى، والجبال والبحار والرياح والشجر وأسرار المادة كلها قائمة داخل سلطان واحد، ولها على طريقها التي يعلها خالقها نصيب من تسيجه وتنزيهه والخضوع له.

وهنا تظهر المفارقة الأولى في السورة: الكون كله يعرف مقامه، والإنسان وحده يُمنح مساحة أن يحدد مقامه. كل شيء في السماوات والأرض يسبح، ثم ستقول الآية التالية: ﴿فَمَنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. كأن الإنسان هو الكائن الذي يستطيع أن يعيش وسط محراب كوني هائل ثم يقرر أن يدير ظهره للمحراب. تتحرك المجرات بأمر الله، وتجري السنن بأمر الله، وتخضع الحياة والموت والقوة والضعف لقانونه، ثم يقف هذا المخلوق الصغير على ذرة من تراب ويجادل في ربه، أو يتصرف كأن العالم ملكه، أو ينسى المصير لأن في يده شيئاً من المال والقدرة. ومن هنا نفهم أن الكفر ليس

مجرد خطأ ذهني معزول، بل نشاز وجودي؛ خروجٌ داخلي عن النعمة التي يسبح بها الكون كله.

ثم تأتي العبارة التي لو استقرت في القلب لتغيرت علاقته بكل شيء: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾. ليست القضية أن الله شيئاً من الملك، ولا أنه أعظم المالكين داخل مجموعة من المالكين، وإنما له الملك؛ الجنس كله، الحقيقة كلها، الأصل كله. فما نسميه «ملكي» في هذه الحياة ليس إلا إذناً مؤقتاً بالانتفاع. البيت الذي تقول عنه بيتي، والجسد الذي تقول عنه جسدي، والمال الذي تحرسه، والولد الذي يملأ قلبك، والاسم الذي تدافع عنه، والموهبة التي تعتز بها، والعقل الذي تفكر به، والوقت الذي تنفقه كيف تشاء؛ كل ذلك ملك لله قبل أن يصل إليك، وملك لله وهو بين يديك، وسيعود أثر ملكيته ظاهراً حين ينزع منك أو تنزع أنت منه.

ولعل هذه الحقيقة هي أول دواء لمرض التغابن؛ لأن الإنسان لا يغبن إلا حين يخطئ في تقدير الملكية. حين يظن أن ما في يده حق أصيل لا وديعة، يتحول فقده إلى انهيار؛ وحين يظن أن قدرته الذاتية هي التي صنعت كل شيء، يتحول نجاحه إلى غرور؛ وحين يعرف أن الملك لله، يتعلم فناً روحياً بالغ الصعوبة والجمال: أن يفرح بالنعمة دون أن يتأله بها، وأن يحزن على الفقد دون أن يعترض على مالكمها، وأن يستخدم الأشياء بقوة دون أن يجعلها هويته النهائية. فما دام الملك لله، فإن الدنيا ليست مكان تملك مطلق، بل موضع أمانات متحركة؛ يعطيك اليوم ما قد يأخذه غداً، ويفتح لك باباً ثم يغلقه، ويرفعك في حال ويختبرك بأخرى، لا عبثاً، ولكن لأنك تعيش داخل ملكه لا داخل مملكة مستقلة عنه.

ثم لا تقول الآية: له الملك فحسب، بل تقول: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾. وهذه مجاورة مدهشة؛ فالملك إذا انفصل في وعي الإنسان عن الحمد قد يتخيله سلطة مجردة، لكن القرآن يجمعهما: له السلطان وله استحقاق الحمد. أي إن الذي يملك الوجود ليس جباراً يعبث بما يملك، تعالى الله عن ذلك، وإنما هو الحكيم الذي يستحق الحمد في تديره كله، فيما فهمناه وفيما لم نفهمه، فيما جاء موافقاً لأمانتنا وفيما هدم صورةً كنا نحبها. وهنا يولد مقام من أعمق مقامات الإيمان: أن تعرف أن الحمد لا يسقط حين يتغير المشهد. نحن نحمد بسهولة حين تأتينا الأشياء على الصورة التي نريدها، لكن السورة التي ستحدثنا بعد

قليل عن المصائب تمهد للقلب منذ البداية: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾. أي إن الذي سيجري عليك المقادير هو نفسه المستحق للحمد، فلا تجعل ألم الحدث يحجب عنك كمال المدبر. ثم يختم مطلع الآية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، حتى لا يمر بك شيء فتظن أنه أفلت من سلطان الله، أو وقع لأن القدرة الإلهية غابت عنه لحظة. كل ما سيأتي في السورة بعد ذلك يقع تحت هذه المظلة: الخلق، والكفر والإيمان، والموت والبعث، والمصيبة، والأهل، والمال، والإنفاق، والمغفرة، والعذاب؛ كلها أحداث في عالم لا يعجز الله فيه شيء. وهذا المعنى لا يورث المؤمن كسلاً، بل يحرره من عبودية الهلع؛ لأنه يعمل وهو يعلم أن الأسباب ليست آلهة صغيرة، وأن الأبواب المغلقة لا تعني انتهاء القدرة، وأن ما استعصى على البشر لا يستعصي على رب البشر.

ثم تنزل السورة من الكون إلى الإنسان:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِّسُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

إنها آية قصيرة، لكنها تضع الإنسان أمام المفارقة الكبرى في وجوده: أنت مخلوق لله، ومع ذلك أنت ممتحن في موقفك من الله. لم تخلق نفسك، ولم تختَر أن توجد، ولم تصمم جسدك، ولم تختَر اللحظة التي دخلت فيها العالم، ومع هذا مُنحت في دائرة التكليف قدرة الاختيار التي بها يكون الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والسمو والانحدار. وفي هذا سر المسؤولية الإنسانية: أن الإنسان لا يملك وجوده، لكنه مسؤول عن وجهة هذا الوجود؛ لم يختَر أن يُمنح القلب، لكنه مسؤول عما يملأ به القلب؛ لم يختَر أن يُمنح العمر، لكنه مسؤول عما يجعل العمر طريقاً إليه.

وتأمل كيف لم تقل الآية: خلق المؤمنين وخلق الكافرين، وإنما قالت: ﴿خَلَقَكُمْ فَنُفِّسُكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾. أصل الخلق واحد، والبداية الإنسانية واحدة، ورب الخلق واحد، ثم يأتي الاقتراق في الموقف. وهنا تسقط أوهام كثيرة يتذرع بها الإنسان؛ فلا أحد يولد وهو يحمل لنفسه ملكية الوجود، ولا أحد يستطيع أن يقول إنه خارج السؤال. إن الحياة نفسها وضعت داخل الامتحان، وكل عقل وقلب وإرادة أدوات أودعها الله فيك لتتجه بها نحو الحق أو تتخرف عنها.

لكن العجيب أن الآية لا تتقف عند وصف الموقع العقدي: كافر أو مؤمن، وإنما تنتقل مباشرة إلى العمل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. كأن القرآن يمنع الإيمان من أن يتحول إلى لافتة معلقة فوق الحياة. أنت لا تعرف في ميزان الله بالكلمة التي وضعها على نفسك، وإنما يظهر صدق تلك الكلمة في آثارها، في العمل، في الاختيار، في الطريقة التي تنصرف بها حين لا يراك الناس، في المال حين تستطيع أن تمتنع أو تعطي، في المصيبة حين تستطيع أن تجزع أو تستسلم لله، في الخصومة حين تستطيع أن تظلم أو تعدل، في السر حين لا يبقى بينك وبين المعصية إلا بصيرة الله بك.

وهنا تبدأ السورة في نقلنا من مظاهر الهوية إلى حقيقتها. فما أكثر ما يستطيع الإنسان أن يبني لنفسه صورة إيمانية أمام الناس، ثم يعيش في داخله عالماً آخر. ولهذا سيعود السياق سريعاً إلى السرائر: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. كأن أول علاج للخسارة الأخروية أن يتوحد الإنسان؛ ألا يكون له وجه لله ووجه للناس، قلب في الخلو ولسان في العلن، هوية معلنة وحقيقة مستورة تناقضا. فالتغابن النهائي يبدأ، في كثير من الأحيان، من هذه المسافة الخفية بين ما ندو عليه وما نحن عليه.

ثم يفتح القرآن المشهد مرة أخرى:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ثلاث محطات في آية واحدة: الخلق بالحق، وإحسان الصورة، ثم المصير إلى الله. وكأن العمر الإنساني كله محصور بين نعمتين وحقيقة: وجدت داخل عالم مصنوع بالحق، ومنحت صورة أحسنها خالقك، ثم أنت ماضٍ إليه. فلا عبث في المسرح، ولا إهمال في تكوين الممثل، ولا ضياع بعد انتهاء المشهد.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ وهذه الكلمة، «بالحق»، تهدم فكرة العبث من جذورها. لم يُخلق العالم ليمضي الإنسان فيه بضعة عقود يجمع وبأكل ويتنافس ثم يختفي كأن شيئاً لم يكن. لو كان الموت نهاية القصة لبدت أسئلة العدل والمعنى والابتلاء ناقصة، لكن الخلق «بالحق» يعني أن وراء الظواهر غاية، وأن أعمالنا لا تبخر، وأن دمعة المظلوم ليست حاداً بلا سجل، وأن خيانة الخائن لا تختفي لأن الناس لم

يعرفوها، وأن صبر الصابر لا يضيع لأن أحداً لم يصفق له. فالكون المؤسس على الحق لا يمكن أن تكون خاتمته عبثاً.

ثم: ﴿وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسِنَ صُورَكُمْ﴾. ومن الغريب أن الإنسان قد يعيش عمره كله داخل هذه النعمة دون أن يراها؛ يعتاد عينيه حتى ينسى معجزة الإبصار، ويعتاد يديه حتى ينسى دقة الحركة، ويعتاد صوته ووجهه وعقله وقدرته على التعبير والحب والتذكر، حتى تصبح المعجزات اليومية مألوفاً لا توقظ فيه دهشة. والقرآن يعيد إليه الدهشة: هذه الصورة لم تكن ضرورة عمياء؛ لقد صوّرت، وأحسنت.

لكن إحسان الصورة ليس دعوة إلى عبادة الصورة، بل هو تحميل لها بالمعنى. وما أشد المفارقة حين ينفق الإنسان كل حياته في تحسين ما أحسن الله صورته، ثم يهمل باطنه حتى يتشوه! يلع وجهه ويترك قلبه يصدأ، ويعالج كل أثر للزمن على جسده ولا يعالج أثر الحسد والكبر والغل على روحه، ويبنى صورته في أعين الخلق ثم ينسى صورته في علم الخالق. ولأن سورة التغابن سورة الموازين المقلوبة، فهي منذ البداية تدعونا إلى إعادة السؤال: أي صورتين ستبقى؟ الصورة التي رآها الناس في الدنيا، أم حقيقة الإنسان التي سيبعث بها إلى ربه؟

ولهذا تأتي النهاية حاسمة: ﴿وَالْيَهُ الْمَصِيرُ﴾. ثلاثة ألفاظ فقط، لكنها تستطيع أن تغير هندسة العمر. إلى الله المصير، لا إلى رأي الناس فيك، ولا إلى رصيدك، ولا إلى البيت الذي عمرته، ولا إلى الاسم الذي تركته على الألسنة. ستخرج من كل الدوائر التي ظننت يوماً أنها نهائية، وتصل إلى الدائرة التي كانت تحيط بك منذ البداية وإن غفلت عنها: الله. وكل رحلة لا تستحضر مصيرها قد تخطئ الطريق، وكل إنسان ينسى إلى أين يمشي يستطيع أن ينشغل طويلاً بتحسين مركب يسير في الاتجاه الخطأ.

ولهذا فإن ﴿وَالْيَهُ الْمَصِيرُ﴾ ليست معلومة عن المستقبل فقط، بل قاعدة للحاضر. حين تعرف أين المصير تعرف ماذا تختار اليوم. حين يكون المصير إلى الله يصبح السؤال قبل كل قرار: كيف سألقى أثر هذا عند الله؟ وحين يكون المصير إليه، تهون أشياء كانت ضخمة لأنك اكتشفت أنها لن تعبر معك، وتعظم أشياء كانت صغيرة لأنك أدركت أنها ستكون زادك الوحيد في العبور. ابتسامة رحمة، كلمة حق، سجدة خفية، عفو عند المقدرة، مال أخرجه وقد أحببته، ذنب قاومته ولم يعلم بمقاومتك

أحد؛ هذه الأشياء التي تمر على الأرض في صمت قد تكون هناك جبلاً من النور، بينما تنهار إمبراطوريات كاملة من المظاهر لأنها لم يكن لها عند الله وزن.

ثم يأتي المستوى الأشد قرباً من القلب:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

بدأت الآية بالسموات والأرض، ثم لم تلبث أن دخلت إلى صدرك. ما أبعد المسافة في نظرنا بين المجرات والخاطرة، وما أقربهما في علم الله. الذي يعلم حركة الأفلاك يعلم رعشة قلبك، والذي لا تخفى عليه ذرة في طبقات الأرض لا تخفى عليه نية مرّت في داخلك ولم تنطق بها، والذي أحاط بالمجرات عدداً ومساراً أحاط بأحزانك التي لم تستطع أن تشرحها، وبالذوافع المختبئة وراء كلماتك، وبذلك الجزء منك الذي لا يعرفه أقرب الناس إليك.

ونتدرج الآية في إحاطة العلم تدرجاً بالغ الدقة: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهذا هو الوجود الخارجي كله؛ ثم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، فهذا عالم السلوك البشري في خفائه وظهوره؛ ثم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وهنا لا يعود الحديث فقط عما أخفيته عمداً، بل عما استقر في أعماق الصدر من النيات والميل والذوافع والخواطر التي قد يعجز الإنسان نفسه أحياناً عن تفكيكها.

وهنا يشعر القلب بنوعين متجاورين من الهيبة: الخوف والطمأنينة. يخاف؛ لأنه لا يستطيع أن يختبئ عن الله خلف جمال اللغة ولا حسن الصورة ولا ثناء الناس. ويطمئن؛ لأن هناك في المقابل رباً يعرف ما لم يستطع أن يقوله، ويرى صدقه حين أساء الناس فهمه، ويعرف جرحه حين اتهمه العالم بالقسوة، ويعلم محاولاته الخفية حين لم ير الناس إلا عثراته. إن علم الله ليس تهديداً للمذنب فحسب، بل مأوى للمظلوم والصادق والمتعب الذي لا يجيد شرح نفسه.

ولعل هذا هو المدخل الحقيقي إلى «التغابن». إن يوم التغابن لا يبدأ يوم القيامة من فراغ، بل هو ظهور ما كان الله يعلمه طوال الوقت. الناس يحكمون بالظاهر، والله يعلم ذات الصدور؛ الناس يرون النتائج العاجلة، والله يرى المسار كله؛ الناس يقولون عن

إنسان إنه نجح لأنهم رأوا ما ملك، ويقولون عن آخر إنه خسر لأنهم رأوا ما فقد، بينما الحقيقة محفوظة في علم لا تخدعه الواجهات. وسيأتي اليوم الذي يصبح فيه ذلك العلم ميزاناً ظاهراً، ويزول الغطاء عن الأسعار الحقيقية للأعمال والنيات والأعمار. وهكذا تضعنا الآيات الأربع الأولى أمام الأساسات التي لا يمكن فهم بقية السورة من دونها: الكون لله، والملك لله، والحمد لله، والقدرة لله؛ والإنسان مخلوق مختار مسؤول؛ والعالم مخلوق بالحق؛ والصورة نعمة؛ والمصير إلى الله؛ والسر والعلن والصدر مكشوفة لعلمه. وبعد هذه الحقائق يصبح الحديث عن يوم التغابن منطقياً لا مفاجئاً؛ لأن من كان له الملك لا بد أن يكون إليه الحساب، ومن خلق بالحق لا يترك رحلة الإنسان تنتهي بلا فصل أخير، ومن يعلم ذات الصدور لا يمكن أن يستوي عنده الصادق والمتزين بصورة الصدق.

إن السورة، قبل أن نخبرنا مَنْ خسر وَمَنْ ربح، تصحح لنا الميزان الذي ستقيس به الخسارة والربح. وهذه رحمة عظيمة؛ أن تعرف معيار الحساب وأنت لا تزال تستطيع أن تغير الأرقام. فما دام العمر لم يُختم، فلا يزال في الإمكان أن يعيد الإنسان ترتيب تجارته مع الله، وأن يتخفف من أرباح وهمية، وأن يستدرك خسائر خفية، وأن يراجع الأشياء التي يمنحها قلبه أثمناً أعلى من أثمانها الحقيقية. وسيبدأ الفصل التالي من حيث يلتفت القرآن إلى الذين مضوا قبلنا، إلى أمم حسبت هي أيضاً أنها تستطيع أن تعيش خارج الحق، ثم ذاقوا وبال أمرها؛ لأن الإنسان لا يتعلم دائماً من الموعظة المجردة، فيفتح له القرآن مقبرة التاريخ ليريه كيف انتهت صفقات الذين سبقوه.

الفصل الثاني

حين يفتح القرآن مقبرة التاريخ

من غرور الاستغناء إلى انكشاف يوم التغابن

بعد أن أعادت الآيات الأولى بناء المشهد من أساسه، فرفعت العين إلى كون يسبح، وردت الملك كله إلى الله، والحمد كله إليه، وأقامت الإنسان في موضعه الصحيح مخلوقاً مسؤولاً، ثم أغلقت الطريق على وهم العبث بقولها: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، لم تترك السورة هذه الحقائق معلقة في التجريد، بل التفتت بالإنسان إلى التاريخ، كأنها تقول له: إن كنت تريد أن تعرف ماذا يحدث حين تفصل حياة البشر عن هذه الحقائق، فانظر وراءك، فليست المسألة نظرية، وقد جربت من قبلك مراراً، ومرّت أمم كاملة من الطريق نفسه الذي قد تميل إلى المرور منه الآن، فأعرضت حين جاءها النور، واستكبرت حين دعاها الرسل، وأعجبت قدرتها حتى توهمت أنها تستطيع أن تستغني عن الله، ثم انقلب ما حسبه قوة إلى سبب هلاك، وما ظنته غنى إلى أفقر صورة يمكن أن يبلغها الإنسان.

يقول تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن اختيار كلمة ﴿نَبَأٌ﴾ هنا يوقظ السامع من غفلته، فالنبا ليس خبراً عابراً يمر ثم ينسى، بل خبر ذو شأن، يحمل وراءه دلالة، ويطلب ممن يسمعه أن يعيد النظر في نفسه. وما أشد حاجة الإنسان إلى أن يقرأ التاريخ بهذه العين؛ لأننا كثيراً ما نقرأ سقوط الأمم بوصفه حوادث مضت، ونعد أخبار الطغاة مادةً للتعجب، بينما القرآن لا يعرض الماضي ليملاً الذاكرة، وإنما لينع تكرار الكارثة. إنه لا يقول لك: هؤلاء قوم انتهوا، بل يقول في المعنى: هذا قانون لم ينته. إن الذي أهلكهم لم يكن اسمهم ولا عصرهم ولا جغرافيا بلادهم، وإنما نمط علاقتهم بالحق، ولذلك يستطيع الإنسان أن

يحمل أسباب السقوط نفسها ولو تغير الزمان، وأن يعيد بناء الكارثة في داخله وإن كان يعيش بين ناطحات السحاب وأحدث أدوات المعرفة.

وتأمل هذه العبارة الثقيلة: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾. لم يقل فقط: فعوقبوا، وإنما جعل عاقبة الأمر شيئاً يُذاق؛ كأن القرارات التي يتخذها الإنسان اليوم تتحول غداً إلى طعم في فمه، وكأن الأفكار التي يؤمن بها سراً، والمواقف التي يختارها علناً، والطرق التي يمضي فيها مطمئناً، كلها تتحول في النهاية إلى مذاق لا يستطيع أن يفر منه. نحن نعيش زمن الاختيار ثم نصل إلى زمن الذوق؛ نزرع الموقف ثم نأكل ثمرته، وربما طال الفصل بين الزرع والحصاد حتى يظن الإنسان أن ما فعله قد انتهى، لكن القرآن يعيد وصل البداية بالنهاية: هذا الذي ذقتموه ليس حادثاً غريباً عنكم، بل هو وبال أمركم، هو العاقبة التي خرجت من جنس الطريق الذي اخترتموه.

وهذا من أدق معاني المسؤولية في القرآن؛ فالعقوبة ليست دائماً شيئاً يأتي من خارج العمل كأنه لا صلة له به، بل كثيراً ما يكون في العمل نفسه بذرة مآله. الكبر يحمل في جوفه العمى، والاستغناء يحمل في جوفه الوحشة، والظلم يحمل في جوفه الخراب، والكذب يفسد قدرة القلب على رؤية الحقيقة، حتى إذا نتابعت الاختيارات صار الإنسان محاطاً بنتائج ما صنع، ثم يتساءل كيف وصل إلى هذا الموضع. وقد يكون أشد الوبال ألا يشعر المرء بوبال أمره إلا متأخراً؛ أن يستمر في الخطأ لأنه لم يسقط فوراً، وأن يظن أن تأخر العاقبة براءة، وأن يفسر الإمهال على أنه رضا، حتى تأتي لحظة ينكشف فيها أن المسافة التي قطعها بعيداً عن الحق كانت هي نفسها بناءً بطيئاً لمصيره.

ثم تقول الآية: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فتفصل بين وبال ذاقوه في الدنيا وبين عذاب لم يأت بعد، وكأن التاريخ نفسه لا يستوفي الحساب كله. قد ترى نهاية طاغية في الدنيا فتظن أن القصة انتهت، أو ترى ظالماً مات على فراشه فتسأل: أين العدالة؟ لكن القرآن يفتح المشهد وراء الموت؛ فالدنيا ليست المحكمة الأخيرة، ولذلك لا ينبغي أن يُقاس عدل الله بما ظهر في عمر قصير من أعمارنا. قد يقع بعض وبال العمل هنا، ويبقى تمام الحساب هناك، ويوم التغابن هو الموعد الذي لا يبقى بعده شيء مؤجل.

ثم تكشف السورة عن الجذر الذي أفسد كل شيء:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا^ج وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

يا لهذه المفارقة التي تكشفها الآية: لم يكن النقص في البيان، فقد جاءت الرسل بالبينات، وإنما كان الخلل في قابلية النفوس لقبول أن تهتدي على يد بشر. إنهم لم يقولوا: لم نفهم الدليل، بل قالوا: ﴿أَبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾. كأن اعتراضهم لم يكن على مضمون الهداية وحده، بل على الطريق الذي اختاره الله لتصل إليهم. وهذه واحدة من أعمق صور الكبر: ألا يكتفي الإنسان برفض الحقيقة، بل يشترط على الله الصورة التي ينبغي أن تأتي بها الحقيقة، والمكان الذي ينبغي أن تظهر منه، والشخص الذي يحق له أن يحملها.

فالإنسان قد يرد الحق لأنه لم يتبين له، بل لأن الذي قاله ليس ممن يحب أن يتعلم منهم، أو لأن الاعتراف به سيهز صورته عن نفسه، أو لأنه يشعر أن النزول عنده تنازل عن مكانته. وقد يكون المرء مستعداً للحق ما دام يؤكد تفوقه، فإذا جاءه من طريق لا يرضي كبريائه أعرض عنه. وكم من حقيقة دفعت ثمن المتحدث بها، وكم من إنسان رأى الصواب ولكنه لم يستطع أن يحتمل أن يكون صواباً صدر عن خصم، أو عن صغير في عينه، أو عن شخص لا يوافق هواه. وهنا تصبح الآية مرآة شديدة القسوة للنفس: هل أطلب الحق حقاً، أم أطلب أن يأتي الحق بالطريقة التي تحفظ لي مقامي؟

ثم يجتمع في وصف موقفهم فعلاً: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾. الكفر موقف من الحقيقة، والتولي حركة بعيداً عنها. وقد يعرف الإنسان شيئاً ثم يتولى عنه، لا لأنه يجمله، بل لأنه لا يريد أن يدفع ثمن معرفته. فالحق له تكاليف، وأحياناً يكون إنكاره أقل مشقة على النفس من اتباعه؛ لأنه لو آمن به لاضطر أن يعيد بناء عاداته ومصالحه وتحالفاته وصورته أمام الناس. ولذلك ليس كل رفض للحقيقة عجزاً عن الفهم؛ بعضه عجز عن الاحتمال، عجز عن تحمل ما تتطلبه الحقيقة من الإنسان بعد أن يعرفها.

ثم تأتي كلمة ذات رهبة: ﴿وَأَسْتَغْنِيَ اللَّهُ﴾. كأنهم حين تولوا توهموا أنهم حرموا الرسالة من أتباعها، أو أن إعراضهم الحق نقصاً بالحق، أو أن السماء بحاجة إلى تصديقهم. فيأتي الرد قاطعاً: الله غني. إن إيمانك لا يزيد في ملك الله شيئاً، وكفرك لا ينقص منه شيئاً. طاعتك نجاة لك، لا خدمة يحتاجها الله منك، وعبادتك شرف عائد إليك، لا سد لنقص في الرب، تعالى عن ذلك. وهذه الحقيقة تقلب مفهوم التدين من أساسه؛ فأنت حين تسجد لا تمنح الله شيئاً، بل يُمنح لك أن تسجد، وحين تطيع لا تقدم خدمة للسماء، بل تنقذ نفسك من التيه.

وكم يحتاج القلب أن يفهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. غنيٌّ عن خلقه، لكنه محمود في غناه، لا يشبه غنى البشر الذي قد يصنع القسوة والاستعلاء، بل غنى الكمال المطلق الذي يعطي من غير حاجة، ويرحم من غير انتفاع، ويهدي لأن رحمته سبقت غضبه، ويفتح الباب للعائدين مع أنه لم يتضرر من ابتعادهم. أنت المحتاج إلى الله في كل لحظة، وهو غني عنك في كل لحظة، ومع ذلك يدعوك ويقبل منك ويرحمك. فأني عجب أن يستكبر المحتاج على الغني، وأن يتولى المخلوق عن خالقه، وأن يظن من لا يملك نبضة قلبه أنه يستطيع أن يستغني عن رب العالمين؟

وهنا تصل السورة إلى أصل آخر من أصول التغاين: إن أكبر خسارة قد تبدأ من وهم الاستغناء. حين يظن الإنسان أنه مكتفٍ بعقله، أو بماله، أو بجاهه، أو بشبكة علاقاته، يبدأ في الانفصال الداخلي عن حقيقة العبودية، وكلها تضخم إحساسه بما يملك صغر في قلبه إحساسه بمن يملكه. لكن الحياة نفسها تتولى تحطيم هذا الوهم مرة بعد مرة؛ مرض صغير يرد الإنسان إلى عجزه، خبر مفاجئ يقلب حساباته، موت حبيب يثبت له أن يده أقصر مما ظن، وانطفاء سبب واحد كان يعتمد عليه يكشف له هشاشة شبكة الأمان التي صنعها لنفسه. ومع ذلك فإن أشد الناس حرماناً من يتلقى هذه الإشارات كلها ثم يصير على الوهم.

بعد الحديث عن الأمم التي كذبت الرسل، ينتقل السياق إلى الجذر الذي يجعل التكذيب بالرسالة ممكناً أصلاً: إنكار البعث. يقول تعالى:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لِي وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

تأمل لفظة «زَعَمَ»؛ إنها لا تمنح قولهم صلابة البرهان، بل تعرضه في جمعه الحقيقي: دعوى. كثير من الأفكار التي يتعامل معها البشر بوصفها يقيناً ليست سوى زعم استقر لكثرة تكراره. وقد يكون الإنسان شديد الثقة بفكرة لا يحمل عليها برهاناً، وإنما ألفها حتى حسب الألفة دليلاً. وهكذا كان إنكار البعث؛ لأن الموت يبدو للعين نهاية، فحولوا ما تراه العين إلى حكم على ما لا تراه، وجعلوا ضيق التجربة البشرية معياراً لقدرة الله.

لكن جواب القرآن لا يدخل معهم في متاهة طويلة؛ يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لِي وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾. والقسم هنا يحمل القضية حرارة اليقين، ليست فرضية فلسفية قابلة للمساومة، وإنما حقيقة قادمة. ﴿وَرَبِّي﴾؛ وربوبية الله التي خلق بها أول مرة هي نفسها التي يبعث بها مرة أخرى. وما أغرب أن يصدق الإنسان خلقه الأول ثم يستبعد إعادته، وأن يقف أمام جسده الحي ونفسه الواعية وهذا الكون الهائل ثم يستكثر على القدرة التي أوجدت ذلك كله أن تعيد خلقه بعد الموت.

وليس البعث هو نهاية الجملة: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾. وهذه هي النقطة التي يخشاهما القلب أكثر مما يخشى فكرة العودة نفسها. فالمسألة ليست أن نعود إلى الحياة فقط، بل أن نعود معنا أفعالنا، وأن نجد الأيام القديمة واقفة أمامنا، والكلمات التي نُسِيت، والنظرات التي مضت، والنيات التي خبأنها، والفرص التي أهدرناها، والمظالم التي تجاوزها الزمن ولم يتجاوزها الحساب. الإنسان يتمنى أحياناً لو أن مرور الوقت يحو ما فعل، لكن الزمن لا يحو في ميزان الله؛ إنه فقط ينقل العمل من الحاضر إلى السجل. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. نحن نستصعب البعث لأننا نقيس قدرة الله على قدرتنا، ونستغرب جمع الذرات لأننا نرى أنفسنا عاجزين عن ذلك. والقرآن يعيد القضية إلى صاحبها: ليس السؤال هل يبدو لك الأمر ممكناً، وإنما من الذي سيفعله؟ فإذا كان الفاعل هو الله، انهار معيار الاستبعاد البشري كله. وهذا درس يتجاوز البعث إلى الحياة: كم من أمر نستبعده لأننا نراه مستحيلاً بأدواتنا، مع أن الإيمان يعلننا أن قدرة الله ليست امتداداً لقدرتنا، وأن المستحيل بالنسبة إلينا لا يصير مستحيلاً عليه.

ثم تأتي الدعوة العملية التي يبينها القرآن على حقيقة البعث:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لم يقل: فإذا كان البعث حقًا فخافوا، وإنما قال: ﴿فَآمِنُوا﴾؛ لأن المقصود ليس صناعة رعب عابر، بل إعادة توجيه الإنسان. والإيمان هنا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا، وهذه التسمية للقرآن بالـ«نور» شديدة الصلة بسورة التغابن؛ لأن التغابن في جوهره أزمة رؤية. الإنسان يخسر لأنه لا يرى القيمة الصحيحة للأشياء، ويبيع ما ينبغي أن يحتفظ به، ويتمسك بما ينبغي أن يتركه، ويحسب العابر دائمًا والدائم عابرًا. فما الذي ينقذه من سوء التسعير هذا؟ النور.

النور لا يخلق الأشياء، لكنه يكشف حقيقتها. الغرفة في الظلام هي الغرفة نفسها، لكنك لا تعرف مواضع الأبواب والعوائق، فإذا أضاء النور لم يزد الموجودات شيئًا، وإنما منعك من الاصطدام بها. وكذلك الوحي؛ إنه لا يخلق الآخرة، فهي قائمة، ولا يخلق حقيقة الدنيا، فهي كما هي، لكنه يمنحك قدرة أن تراها قبل أن تصطدم بحقيقتها. يخبرك أن المال فتنة قبل أن تفتن، وأن الدنيا متاع قبل أن تكتشف عند الموت أنها مضت، وأن العمل سيعود إليك قبل أن تجده في كتابك، وأن المصيبة بإذن الله قبل أن تضرب قلبك، وأن الشح باب خسارة قبل أن تموت وقد تركت ما جمعت لغيرك.

ومن هنا فإن أعظم من القرآن على الإنسان أنه يمنحه البصر قبل يوم الكشف. يوم القيامة سيرى الجميع؛ لكن الناجي هو من أبصر قبل أن يصبح الإبصار اضطرابًا. يوم التغابن لن يبقى كافر يشك في الآخرة، لكن هذا الإيمان المتأخر لا يغير شيئًا؛ لأن قيمة الإيمان أنه نور يُتبع في الظلمة، لا اعتراف يُقال بعدما تضاء كل الأنوار قسراً.

ثم تصل السورة إلى الآية التي حملت اسمها، الآية التي تتجمع عندها كل الخيوط السابقة:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾. إن العالم الذي فرقنا سيعاد جمعه. الأجيال التي لم تر بعضها ستقف في ساحة واحدة، والملوك والرعاة، والأغنياء والفقراء، والمشهورون والمنسيون، والذين عاشوا في القصور والذين ماتوا بلا مأوى، والذين امتلأت الدنيا بأسمائهم والذين لم يعرف أسماءهم أحد؛ كلهم سيخرجون من اختلاف الأزمنة إلى وحدة الموعد. وهذه الكلمة وحدها تكفي لخلخلة كثير من غرور الدنيا: الجمع. كل تلك الفروق التي بدت هنا ضخمة ستصبح تفاصيل صغيرة حين يقف الجميع حفاة من ملكياتهم، مجردين من الألقاب التي صنعت بينهم المسافات.

ثم يقول: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾. وهنا يُسمي الله ذلك اليوم باسم لا يكاد يوجد اسم أقدر منه على فضح أوهام الدنيا. التغابن من الغبن؛ أن يظهر لأحد الطرفين أنه خسر في الصفقة حيث ظن أنه ربح، أو ضيع ما كان ينبغي حفظه، أو أعطى ما هو أثمن وأخذ ما هو أدنى. وهذا اليوم هو يوم التغابن لأن الحسابات التي عاش عليها الناس ستقلب؛ سيعرف أقوام أنهم باعوا الأبد بلحظة، وأعطوا رضا الله مقابل تصفيق عابر، وتخلوا عن قلوبهم ليحفظوا صورة أمام الناس، واختاروا شهوة تنتهي على جنة لا تنتهي.

يوم التغابن هو اليوم الذي يكتشف فيه الإنسان الفرق بين السعر الذي وضعه للدنيا والسعر الذي كانت تستحقه فعلاً. كم من شخص أنفق دينه ليحصل على منصب، ثم انتهى المنصب وبقي ثمنه. وكم من إنسان أضاع ضميره ليجمع مالاً، ثم ترك المال على الأرض وحمل إثم الطريقة معه. وكم من قلب ضحى بصفائه لينتصر في خصومة صغيرة، فلها انطفأت الخصومة وجد أن ما خسره في نفسه أكبر مما ربحه من خصمه. وكم من إنسان ظن أنه خسر حين امتنع عن حرام كان قادراً عليه، وحين رد مالاً كان

يستطيع أخذه، وحين سكت عن انتقام كان بوسعه فعله، فإذا بتلك «الخصائر» الصغيرة تتحول يوم التغابن إلى أثمن ما يملكه.

إنه اليوم الذي تنكشف فيه أخطاء الحساب الكبرى: كان الواحد منا يعدّ المال الذي فاتته خسارة، ولا يعدّ الصلاة التي فاتته خسارة؛ ويحزن على فرصة دنيا ضاعت ولا يحزن على ساعة مرّت دون خير؛ ويخاف على اسمه بين الناس أكثر مما يخاف على اسمه في الملأ الأعلى؛ وقيس النجاح بما حصل عليه لا بما صار إليه قلبه. ثم يأتي يوم التغابن ليصحح الأرقام كلها دفعة واحدة.

لكن القرآن، وهو يذكر هذا اليوم المهيّب، لا يدع القلب في الفزع وحده، بل يفتح باب النجاة مباشرة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾. وهذا من الرحمة المدهشة في نظم الآية؛ يوم كشف الخصائر هو نفسه اليوم الذي تظهر فيه سعة المغفرة. المؤمن لا يأتي بلا نقص، ولا يدخل الحساب لأنه لم يخطئ قط، بل لأنه حمل إيماناً وعملاً صالحاً ولقي رباً يكفّر السيئات. إن النجاة ليست ثمرة كمال بشري مستحيل، وإنما ثمرة عبودية صادقة تحت رحمة الله.

ثم: ﴿وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. بعد عالم الفوات يأتي عالم لا فوات فيه، وبعد حياة كل ما فيها معرض للزوال تأتي حياة لا يهددها فقد. ونحن لا ندرك تمام نعم الخلود لأن وعينا كله تشكل داخل زمن ينقص الأشياء؛ كل جميل في الدنيا يرافقه خوف خفي من نهايته، وكل اجتماع تحيط به إمكانية الفراق، وكل صحة يسكنها احتمال المرض، وكل شباب يمضي، وكل وجه نحبه يحمل في داخله موعد الرحيل. أما الجنة فنعيمها لا يهدده الزمن؛ ولذلك لم يكتف النص بخالدين، بل قال: ﴿فِيهَا أَبَدًا﴾، وكأن القلب البشري يحتاج أن يسمع نفي النهاية مرة بعد مرة حتى يستطيع أن يتصور أماناً لا يتهدده زوال.

ثم يأتي الحكم النهائي: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. لا ما سماه الناس فوزاً، ولا ما امتلأت به الصحف والمنصات والجوائز والترتب، ولا الصفقات التي حسدك الناس عليها، ولا المعارك التي خرجت منها منتصراً في أعينهم؛ ذلك هو الفوز العظيم. إن القرآن لا ينكر أشكال النجاح الدنيوي، لكنه يرفض منحها صفة «العظيم» في الميزان الأخير. العظيم ما بقي، والعظيم ما عبر معك الموت، والعظيم ما حفظك يوم سقطت كل الحمايات.

ثم تضع السورة في الجهة الأخرى الصورة المقابلة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَسِعَ
الْمَصِيرُ﴾.

هنا ينتهي الطريق الآخر. الكفر والتكذيب لم يعودا رأياً نظرياً في مجلس قديم، بل مصيراً. وهذه من الحقائق التي يحاول الإنسان أن يبعدها عن وعيه لأنها ثقيلة، لكن الرحمة ليست دائماً في تخفيف الحقيقة؛ أحياناً تكون الرحمة في أن تعرفها قبل أن تصل إليها. إن الطريق الذي ينتهي إلى النار يجب أن يُقال للناس إنه ينتهي إلى النار، وإخفاء النهاية ليس لطفاً بالمسافر بل خيانة له.

ونكرر كلمة المصير التي مرت في بداية السورة: ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾، ثم هنا: ﴿وَسِعَ الْمَصِيرُ﴾. كأن السورة تقول: الجميع يصيرون إلى الله، لكن المصائر عنده ليست واحدة. الوصول حتمي، أما هيئة الوصول فهي مجال الامتحان. لا أحد يستطيع أن يرفض النهاية، وإنما يستطيع الآن أن يختار ما الذي سيحمله إليها.

وهنا، بعد أن بلغنا يوم التغابن ورأينا الحساب الأخير، سنعيدنا السورة فجأة إلى الحياة اليومية، إلى شيء يطرق كل بيت ويعرفه كل قلب: المصيبة. وكأن القرآن بعد أن صحح لنا صورة النهاية يريد أن يعلمنا كيف نعيش الطريق إليها. سيقول في الآية التالية: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، وهناك سنقف أمام واحد من أرق وأعظم وعود القرآن: أن الإيمان لا يمنع دائماً نزول الألم، لكنه يمنع القلب من الضياع داخله.

الفصل الثالث

حين تهبط المصيبة ويهتدي القلب

من سكينه القدر إلى امتحان الأهل والمال

بعد أن رفعت السورة أعيننا إلى يوم التغابن، وأرثنا لحظة انكشاف الأرباح والخسائر في ميزان الأبد، تعيدنا إلى الأرض، إلى موضع الألم الذي نعرفه جميعاً، إلى تلك اللحظة التي لا يكون الإنسان فيها منشغلاً بالفلسفة ولا بتأرجح الأمم ولا بمجاذلات العقيدة، بل بجرح وقع، أو خير نزل، أو محبوب فُقد، أو باب أُغلق، أو حياة انقسمت فجأة إلى ما قبل المصيبة وما بعدها. وهنا يجيء القرآن لا ليقول للإنسان إن المؤمن لا يتألم، ولا ليجرده من طبيعته البشرية، ولا ليطالبه ببرودٍ مستحيل أمام الفقد، وإنما يعطي الألم إطاراً لا يتركه يتحول إلى تيه، ويعطي القلب معنى يستطيع أن يقف عليه وهو يرتجف:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إنها من الآيات التي لا يكفي أن تُقرأ باللسان؛ لأنها مكتوبة لتُقرأ في الساعات التي لا تجدي فيها الكلمات العادية. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾؛ ولفظ الإصابة نفسه يوحي بشيء بلغ موضعه، كأن الحدث الذي نراه مفاجئاً لم يكن تائهاً في الفضاء حتى صادفنا، ولم يكن سهماً خرج من يد عمياء ثم أخطأ الطرق حتى استقر في حياتنا، بل وقع داخل علم الله وإذنه. وهذا لا يعني أن كل من تسبب في الأذى معذور، ولا أن الشرور البشرية تتحول إلى خير لجرد وقوعها، فالظالم مسؤول عن ظلمه والخائن مسؤول عن خيائنه والمعتدي مسؤول عن عدوانه، ولكن فوق دوائر الأسباب البشرية كلها دائرة أوسع لا يخرج عنها شيء: دائرة سلطان الله وعلمه وإذنه الكوني.

والقلب إذا لم يفهم هذه الحقيقة يستهلك نفسه في سؤال لا نهاية له: لماذا حدث هذا؟ لماذا الآن؟ لماذا أنا؟ ماذا لو تأخرت دقيقة؟ ماذا لو قلت كلمة أخرى؟ ماذا لو

سلكت طريقاً مختلفاً؟ ويظل يعيد صناعة الماضي في خياله بحثاً عن نسخة لم تقع، حتى يتحول الألم الواحد إلى مئات الآلام. أما الإيمان بالقدر فلا يحو السؤال الإنساني، لكنه يمنع السؤال من أن يصير هاوية. إنه يقول للقلب: لم يكن الذي وقع خارج العلم، ولم تكن حياتك قد انفلتت من يد ربها، ولم يدخل إلى عالمك شيء لم يكن الله يعلمه قبل أن تعرف أنت أن لك عالماً أصلاً.

وأعجب ما في الآية أنها لم تعد المؤمن بأن المصيبة لن تصيبه، بل قالت: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾. كأن موضع المعجزة ليس دائماً في تغيير الحدث، بل قد يكون في تغيير القلب الذي يستقبل الحدث. قد يبقى الفقد فقداً، ويبقى الجرح جرحاً، ويبقى الواقع صعباً، ولكن الله يهدي قلب صاحبه إلى الطريقة التي يعبر بها الألم دون أن ينقطع عن الله. وهذه الهداية لا تعني أن الدموع تتوقف، ولا أن القلب لا يشاق، ولا أن الإنسان لا يضعف، بل تعني أن وراء الضعف خيطاً لا ينقطع، وأن في أعماق الحزن معرفة تمنعه من التحول إلى اعتراض، وأن المصاب، وهو لا يفهم كل الحكمة، يعرف من يده الحكمة كلها.

ما أدق التعبير: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، لا «يمنع عنه حزنه»، ولا «يغير واقعه»، بل يهدي القلب؛ لأن القلب هو الموضع الذي يمكن للمصيبة أن تتحول فيه إلى باين متعاكسين: باب يقرب الإنسان من ربه، وباب يطرده إلى الظلمة. الحدث واحد، لكن القلوب ليست واحدة. قد يدخل البلاء على قلب فيزيده قسوةً وسخطاً، ويدخل على قلب آخر فيكسر منه وهم الاستغناء، ويعرفه بريه، ويفتح له باب دعاء لم يعرفه في الرخاء، ويجعله يرى الدنيا لأول مرة على حقيقتها. ليست المصائب عظيمة بذاتها فقط، بل بما تفعله في القلب؛ ولذلك كان أعظم ما يطلبه المؤمن وقت البلاء ألا ينجو جسده وحده، بل ألا يضيع قلبه.

ولعل هداية القلب عند المصيبة تبدأ من أن يعرف أن ما وقع لم يكن عبثاً، ثم تمتد إلى أن يعرف كيف يتعامل معه، ثم تبلغ ذروتها حين لا يجعل ما فقده أكبر في نفسه من الله. وهذا مقام عسير؛ لأن الإنسان قد يحب الشيء حتى يصبح فقده كأنه فقد العالم كله، فإذا جاءت المصيبة كشفت ترتيب المحبوبات في القلب. وما أكثر ما نعرف عقائدنا نظرياً حتى تأتي الأيام فتسألنا عنها عملياً. نقول إن الله أحب إلينا من

كل شيء، ثم تأتي لحظة يُؤخذ فيها منا شيء عزيز، فيظهر مقدار ما استقر من هذه الحقيقة في أعماقنا.

ثم تحتم الآية: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وهذا الختام ليس زيادة لفظية بعد الحديث عن المصيبة، بل هو قلب المعنى كله؛ لأن كثيراً من وجع الإنسان يأتي من جهله بما لا يعرفه. نحن نرى قطعة صغيرة من القصة ونحاكم بها القصة كلها، ونرى يوماً واحداً ونريد أن نفهم من خلاله عمراً كاملاً، ونرى ألم الحاضر ولا نرى ما صُرف عنا، ولا ما سيولد من هذا الألم، ولا ما أدخر وراءه. أما الله فيعلم كل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم القلب الذي أصابته المصيبة قبل أن تصيبه، وما يصلحه، وما يفسده، وما يحتمله، وما يمكن أن يخرج منه بعد العبور. وحين تستقر هذه المعرفة في النفس، لا يصبح الإنسان فاهماً لكل ما جرى، لكنه يصبح مطمئناً إلى علم من أجهله. والفرق عظيم بين أن تفهم الحكمة تفصيلاً وبين أن تثق بالحكيم. قد تبقى أمامك أسئلة كثيرة بلا جواب، لكنك لا تعود وحيداً أمامها؛ لأن خلف المجهول علماً مطلقاً.

ثم تأتي الآية التالية لتعيد المؤمن إلى مسؤوليته:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

بعد القدر تأتي الطاعة، وهذه مجاورة شديدة الدلالة؛ لأن الإيمان بالقدر إذا فهم خطأ قد يتحول إلى ذريعة للكسل والاستسلام. ولذلك يعيد القرآن التوازن سريعاً: ما وقع عليك بإذن الله، لكن ما ستفعله بعد وقوعه مجال تكليفك. لست مسؤولاً عن كل ما يحدث لك، لكنك مسؤول عن موقفك مما يحدث لك. ليست كل الأحداث اختيارك، لكن استجابتك الأخلاقية والإيمانية لها اختيارك.

ومن أجل ما نتعلمه هنا أن التسليم للقدر لا يعني تعطيل الإرادة، بل تحريرها من الاعتراض على ما مضى لكي تعمل فيما بقي. الإنسان الذي يستهلك عمره في مقاومة الماضي لا يملك طاقة لإصلاح المستقبل، والمؤمن يتعلم أن يقول للذي انتهى: كان ما كان بإذن الله، ثم يلتفت إلى السؤال العملي: ماذا يريد الله مني الآن؟ وهنا تتحول العقيدة من فكرة إلى قوة حياة.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ والتكرار في الفعل يمنح كل طاعة حضورها واستقلالها في النظم، ويؤكد أن طريق الإيمان ليس مشاعر وجدانية فحسب. يمكن للإنسان أن يبكي عند سماع آية، وأن يتأثر بذكر الموت، وأن يشعر بالقرب في لحظات، لكن معيار الصدق يظهر حين تتحول هذه الأحاسيس إلى استجابة. الطاعة هي اللحظة التي يخرج فيها الإيمان من القلب ليتجسد في القرار.

ثم تأتي حقيقة تحرر الرسالة من مزاج الناس: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾. الرسل لا يملكون قلوب الناس، ولا يكرهونها على الهداية، ولا تُقاس قيمة الرسالة بعدد من استجابوا لها. وظيفتهم أن يبلغوا، وعلى الإنسان أن يختار. وهذه الحقيقة تعيد ترتيب مسؤولية كل من يحمل كلمة حق بعدهم؛ لست مكلفاً أن تفتح قلوب الناس بالقوة، ولا أن تجعل الجميع يوافقونك، بل أن يكون بيانك صادقاً وطريقك واضحاً ثم تترك للإنسان مسؤوليته.

ثم تأتي الآية التي يمكن أن يسكن إليها القلب بعد أن تزلزله المصيبة:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

إنها ليست عبارة عقدية معزولة، بل تأتي هنا كأنها نتيجة لما سبق كله. إذا كان لا إله إلا هو، فلا ينبغي للقلب أن يوزع اعتماده النهائي بين آلهة صغيرة من الأسباب. التوكل ليس أن تلغي الأسباب، وإنما ألا تمنحها مقام الربوبية في داخلك. تعمل، وتخطط، وتستشير، وتندأوى، وتحذر، وتحسب، لكنك تعرف في الطبقة الأعمق من وعيك أن النتيجة ليست ملكاً لهذه الوسائل.

وكم من إنسان لا يعبد صنماً من حجر، لكنه يصنع داخل قلبه أصناماً من نوع آخر: وظيفة يظن أنها ضمان وجوده، أو شخصاً يظن أن حياته تتوقف عليه، أو مאלاً يشعر أن أمانه كله فيه، أو نفوذاً يتخيل أنه يحميه من تقلب الأيام. ثم تأتي الحياة أحياناً لتكسر واحداً من هذه الأصنام، لا لأن الله يريد بالعبد سوءاً، بل لأن القلب لا ينبغي أن يتخذ من دون الله ما لا يحتمل أن يكون إلهاً.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ تقديم الجار والمجرور يرد التوكل إلى موضعه الذي لا ينبغي أن يتجاوزه: على الله. لا على قدرتك وإن استخدمتها، ولا على صديقك وإن

وثقت به، ولا على خبرتك وإن أحسنت الأخذ بها. كل هذه أسباب مأذون لك أن تتعامل معها، لكن إذا علّقت عليها قلبك كله تحولت من أدوات إلى أغلال.

والتوكل بهذا المعنى ليس راحة الكسالى، بل شجاعة العاملين. أن تدخل مشروعك وأنت تعلم أنك قد تفشل لكنك لا تنكسر، وأن تواجه المرض وأنت تتداوى دون أن تجعل الطبيب رباً للشفاء، وأن تخوض الحياة بكل قوتك ثم تحتفظ في أعماقك بمساحة لا يملكها إلا الله. هذه المساحة هي التي تحميك حين تنهوى الأسباب.

ثم تنتقل السورة من المصيبة العامة إلى دائرة أكثر حساسية وخطورة: دائرة البيت، أقرب الناس إلى الإنسان، الذين قد يكونون موضع سعادته، وقد يصبحون أيضاً موضع

امتحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَاؤُكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا تَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إنها آية تحتاج إلى قلب متزن؛ لأنها لو قرئت بسطحية تحولت إلى دعوة للشك في أقرب الناس، بينما نظمها نفسه يمنع ذلك. لم يقل: «إن أزواجكم وأولادكم أعداء لكم»، وإنما قال: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾؛ فالتبعية حاضرة، والحذر ليس عداءً عاماً للأسرة، بل تنبيه إلى أن الحب نفسه قد يصبح منفذاً للفتنة إذا دفع الإنسان إلى مخالفة الحق.

والعداوة هنا ليست بالضرورة كراهية مقصودة. قد يحبك إنسان حباً صادقاً، ثم يكون حبه لك أو حبك له سبباً في تعطيل واجب، أو ارتكاب محرم، أو التراجع عن موقف حق؛ فيتحول أثر المحبة، من حيث لا يشعر الطرفان، إلى أثر يشبه فعل العدو. وهذا من أدق مواضع الاختبار: أن الخطر لا يأتي دائماً في صورة شيء نكرهه، بل أحياناً يأتي من داخل ما نحب.

قد يخاف الوالد على ولده فيمنعه حبه من بذل واجب، وقد يحمل الرجل حرصه على أسرته على اكتساب مال لا يرضي الله، وقد تجعل الأم رضا أبنائها أعلى من حدود الله، وقد يتنازل الإنسان عن مبدأ لأنه لا يريد أن يخسر قرب شخص عزيز. وهنا تظهر حقيقة مرهفة: ليست المحبة في ذاتها مشكلة، وإنما المشكلة حين تصعد المحبة درجة أعلى من مقامها، فتتأفف طاعة الله.

ولهذا قال: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾، ولم يقل: فاكروههم، ولا فاهجروهم، ولا فاقطعوههم. الحذر وعي، وليس قسوة. أن تحب دون أن تفقد بصيرتك، وأن تعطي دون أن تسلم قياد قلبك، وأن تراعي دون أن تجعل رضا المخلوق فوق رضا الخالق.

ثم ما أسرع ما يفتح القرآن باب الرحمة في الآية نفسها: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ما أعجب هذا التوازن؛ تحذير بلا تسمم للعلاقة، وحذر بلا قسوة، وعي بالفتنة مع بقاء باب العفو مفتوحاً. فالمؤمن لا يحول التنبيه إلى ذريعة للانتقام، ولا يجعل خطأ القريب سبباً لهدم الرحمة.

وتسدرج الألفاظ: العفو، والصفح، والمغفرة. وكأن القرآن يريد من الإنسان ألا يكتفي بترك العقوبة، بل أن يرتقي في معالجة الجرح؛ قد تغفو عن الفعل ولا يزال وجهك يحمل أثر الغضب، فتأتي منزلة الصفح، وقد تصفح ويظل في القلب أثر، فتأتي المغفرة كستار رحمة. ثم يربط قدرتك على العفو باسمين من أسماء الله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. كأن من يرجو المغفرة ينبغي أن يتعلم شيئاً من أخلاق العفو فيما بينه وبين الناس، من غير أن يعني ذلك ترك الحقوق أو فتح الباب للظلم.

ثم تعمم السورة المعنى:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه الآية تغير موقع المال والولد داخل الوعي. نحن نراها عادة نعمة، والقرآن لا ينفي ذلك، لكنه يضيف طبقة أخرى من الحقيقة: هما أيضاً فتنة، أي اختبار. وكل نعمة عظيمة تجعل معها امتحاناً يوازئها. المال ليس فقط ما تستطيع أن تشتري به، بل سؤال: من أين اكتسبته؟ وفيما أنفقته؟ وهل ملكته أم ملكك؟ والولد ليس فقط امتداداً للحياة وفرحاً للقلب، بل سؤال: هل أحببته الله، وهل ربيته على الحق، وهل جعلت خوفك عليه عذراً لمخالفة ربك؟

والمشكلة أن الفتنة حين تأتي في صورة محبوبة تكون أشد خفاء. الناس يستعدون عادة للأعداء، لكنهم لا يستعدون لما يحبون. والقرآن يعلبك أن قلبك قد يُختبر بشيء تحبه أكثر مما يُختبر بشيء تكرهه، لأن ما تكرهه تستنفر منه، أما ما تحبه فقد تفتح له أبوابك كلها.

ثم يضع إلى جانب فتنة المال والأولاد حقيقة تكسر سلطانهما: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. إذا عرفت أن عند الله ما هو أعظم، استطعت أن تضع المحبوبات في مراتبها. كثير من الانحراف يأتي من أن الإنسان لا يرى إلا ما بين يديه، يرى المال ولا يرى الأجر، يرى ابنه ولا يرى ربه، يرى اللحظة ولا يرى الأبد. ولهذا فإن علاج الفتنة ليس في قتل المحبة، بل في توسيع الرؤية.

ومن هنا يصبح التغلب مفهوماً حاضراً في البيت والسوق والعمل، لا اسماً ليوم بعيد فقط. كل مرة تقدّم فيها شيئاً فانياً على شيء باقٍ، تدخل في صفقة تحمل احتمال الغبن. وكل مرة تضحي فيها بشيء عاجل من أجل رضا الله، قد تبدو خاسراً في ميزان اللحظة، لكنك تربح في الميزان الذي لا يكذب.

وسيجيء بعد هذا مباشرة أمر جامع يلخص طريقة النجاة من هذه الفتن كلها: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾. وهناك ستصل السورة إلى العقدة الأخيرة في النفس: الشح، ذلك الخوف الداخلي من أن نخسر إذا أعطينا، لتكشف لنا المفارقة الأعظم: أن الإنسان قد يحتفظ بما في يده فيخسره، وقد ينفقه لله فيجده عنده مضاعفاً. وهكذا تقترب السورة من خاتمها وقد أعادت تعريف الملك، والفقد، والمحبة، والخوف، والإنفاق، حتى يصبح السؤال الأخير أكثر صفاء: ماذا ستبقي لنفسك حقاً قبل أن يأتي يوم لا يبقى فيه إلا ما قدّمت؟

الفصل الرابع

حين يرحُّ الإنسانُ نفسه

من شُجِّ القلب إلى القرض الذي لا يضيع

كانت السورة قد قادت الإنسان في رحلتها من أقصى اتساع الكون إلى أضيق أسرار الصدر، ومن تسبيح السماوات والأرض إلى اختيار الإيمان والكفر، ومن أخبار المكذبين إلى يوم الجمع، ومن مشهد التغابن الأكبر إلى المصيبة حين تهبط على الحياة، ثم دخلت إلى البيت نفسه، إلى الزوج والولد والمال، إلى تلك الأشياء التي لا يقف الإنسان منها موقف المتفرج، لأنها تسكن مواضع عميقة من قلبه؛ حتى إذا انتهت به إلى هذه الدائرة الحساسة، لم تتركه أمام التحذير مجرداً من الطريق، بل جاءت بالخلاصة العملية التي يستطيع أن يعيش بها ما بقي له من العمر:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

إنها آية تبدو لأول وهلة مجموعة أوامر متجاورة، لكنها في حقيقتها خريطة نجاة مختصرة: تقوى، وسماع، وطاعة، وإنفاق، ثم معركة خفية داخل النفس اسمها الشح. وكأن القرآن، بعدما أخذنا في جولة طويلة بين حقائق الوجود والآخرة، انتهى بنا إلى اكتشاف مذهل: أن كثيراً من مصائر الإنسان الكبرى تُصنع في موضع صغير لا يراه أحد، في علاقته بما يجب أن يحتفظ به، وفي استعداداته لأن يقدم لله شيئاً مما تعلق به قلبه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ وهذه العبارة من أرحم ما يخاطب به التكليف ضعف الإنسان. لم يقل القرآن: اتقوا الله كما يتحليون الكمال، ولا كما يستطيع الملائكة، ولا كما يستطيع غيركم، وإنما ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي ابدلوا من صدقكم ما تبلغ إليه قدرتكم. إن الله الذي خلق الإنسان يعلم ما فيه من ضعف، ويعلم تفاوت الطاقات، واختلاف الأحوال، وثقل الابتلاءات، ولذلك لا يقيم علاقته بعباده على مطالبتهم بما لا

يطيقون، بل على صدق الاستطاعة. وليس معنى ذلك أن الإنسان يَحْتِجُ خلف دعوى العجز كلها شق عليه التكليف، وإنما المعنى أن الله ينظر إلى أقصى ما بذلت، لا إلى الصورة المثالية التي تعجز عنها طبيعتك.

وهذا يفتح في القلب باباً واسعاً من الرجاء؛ لأن بعض الناس يبتعد عن الطريق حين يعجز عن بلوغ صور عالية من الكمال، فيقول في داخله: ما دمت لا أستطيع أن أكون كما ينبغي، فلن أفعل شيئاً. لكن القرآن يهدم هذا المنطق: افعل ما تستطيع، ثم زد استطاعتك بالسير. إن التقوى ليست قفزة واحدة يبلغ بها الإنسان ذروة النقاء، بل رحلة من المجاهدة تسع فيها القدرة كلها صدقت النية. قد تبدأ بترك ذنب واحد، ثم يفتح ذلك الترك في قلبك قوة لترك غيره، وقد تبدأ بطاعة صغيرة، فإذا داومت عليها صنعت في روحك قابلية لطاعة أكبر. والله لا يطلب منك صورة شخص آخر، بل يطلب منك صدقك أنت في حدود ما تستطيع.

ثم تأتي الكلمتان اللتان تختصران جوهر العلاقة بالوحي: ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾. والسمع هنا ليس مجرد وصول الصوت إلى الأذن، فكم من إنسان يسمع ولا يسمع؛ تمر الآية على أذنه ولا تصل إلى موضع القرار فيه. السمع القرآني الحقيقي هو أن تمنح الكلمة حقها في أن تغيرك، أن تدخل إلى حياتك لا إلى ذاكرتك وحدها. ولهذا جاء بعده ﴿وَأَطِيعُوا﴾، لأن السماع الذي لا يتحول إلى استجابة قد يصبح حجة على صاحبه بدل أن يكون نجاة له.

وكم تتغير قيمة المعرفة حين نفهم هذا! ليست القضية في القرآن أن تعرف أكثر فحسب، بل أن تصبح معرفتك جزءاً من تكوينك. قد يحفظ الإنسان مئات الآيات، لكنه إذا بقي بعد كل ذلك كما كان قبلها، فقد دخلت الكلمات إلى ذاكرته ولم تدخل إلى بنية حياته. والآية تريد أن تسد هذه المسافة: اسمعوا، ثم أطيعوا؛ لتصبح الكلمة حركة، والمعنى اختياراً، والإيمان سلوكاً.

ثم ينتقل السياق مباشرة إلى موضع تجسد فيه الطاعة بصورة شديدة الحساسية: ﴿وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾. ولأول وهلة يظن الإنسان أن الإنفاق خير لمن يأخذ، فإذا بالقرآن يعيد تعريف الصفة: هو خير لكم أنتم. حين تعطي فقيراً مالاً، ينتفع الفقير بالمال، لكنك قد تنتفع بشيء أعمق: تحرر قطعة من قلبك من عبودية ما تملك. وحين

تبذل لوجه الله، لا تنقص ثروتك الحقيقية، بل تنقلها من يد معرضة للفناء إلى حساب لا يضيع.

ولهذا فإن الإنفاق في القرآن ليس مجرد نظام لتوزيع المال، بل تربية للقلب على أن يعرف مالكة الحقيقي. المال شديد الالتصاق بالنفس؛ لأن فيه صورة من صور القدرة والأمان والاختيار، وكلما ازداد الإنسان اعتماداً عليه ازداد خوفه من فقده، فإذا طلب الله منه أن ينفق، لم يكن السؤال فقط: كم ستعطي؟ بل: من الذي يملك قلبك؟ هل تستطيع أن تفتح يدك لأنك تثق بما عند الله أكثر مما تثق بما في جييبك؟ وهنا تكشف الآية العدو الحقيقي: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. لم تقل: ومن ينفق يكن من المفلحين فحسب، بل ذهبت إلى ما وراء الفعل، إلى المرض الذي يجعل الإنفاق صعباً: شح النفس. والشح أعمق من مجرد البخل، إنه انكماش داخلي يجعل الإنسان يريد الخير لنفسه وحدها، ويتشبث بما عنده، ويخاف أن ينقص نصيبه إذا أعطى غيره، وقد يمتد من المال إلى المكانة والاعتراف والوقت والمحبة. هناك من يشح بالمال، ومن يشح بكلمة تقدير، ومن يشح بالعفو، ومن يشح بالعلم، ومن يشح بأن يعترف لغيره بفضل، وكأن النفس تريد أن تحتكر كل شيء حتى ما لا ينقص بالمشاركة.

وأدق ما في العبارة أنها قالت: ﴿يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾. كأن الشح خطر ساكن في الداخل يحتاج الإنسان أن يُوقِ منه، لا مجرد عيب خارجي يمكنه إصلاحه بسهولة. إن النفس بطبيعتها تميل إلى الإمساك؛ تحب أن تتأكد أن نصيبها محفوظ، وأن ما خرج منها سيعود إليها، ولذلك يصبح البذل اختباراً للإيمان بالغيب. عندما تنفق لوجه الله، أنت تصدق بوعد لا تراه، وتتنازل عن شيء حاضر من أجل شيء مؤجل، وهنا بالضبط يلتقي الإنفاق بموضوع السورة كله: التغابن.

فالإنسان الشحيح يحسب أنه يحجي نفسه، بينما قد يكون يجرمها. يمسك المال لنفسه، فيتركه عند موته لغيره، ويحرم نفسه من الأجر الذي كان يستطيع أن يجمله معه. والقرآن يقلب الحساب: الإنفاق ﴿خَيْرًا لِّانْفُسِكُمْ﴾، والوقاية من الشح هي الفلاح. إنها مفارقة بديعة: أحياناً تحفظ الشيء فتخسره، وتعطيه فتحفظه.

ولو أن الإنسان حمل معنى يوم التغابن في قلبه، لتغيرت علاقته بكل ما يملك. سيعرف أن أعظم الخسائر ليست أن ينقص حسابه البنكي، بل أن يخرج من الدنيا وهو لم يحوّل شيئاً مما ملك إلى زاد للأبد. إنك لن تأخذ مالك معك بصورته التي تعرفها، لكنك تستطيع أن ترسله أمامك في صورة صدقة، وإغاثة، وإحسان، وعمل صالح. وكأن الإنفاق هو الطريقة التي يتعلم بها المؤمن أن يسبق أمواله إلى الآخرة.

ثم يرتفع الخطاب إلى صورة من أرق صور العلاقة بين العبد وربّه:

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ما أدهش هذا التعبير! الله الذي قال في أول السورة ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ هو نفسه الذي يقول هنا: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾. كيف يُقرض المملوك مالك الملك؟ كيف يعطي الفقير الغني؟ إنها لغة التكريم الإلهي للعبد؛ فالمال كله لله، وهو الذي أعطاك إياه، ثم إذا أخرجت شيئاً منه في طاعته نسبه إليك وعدّه قرضاً منك له، ووعدك أن يردّه مضاعفاً. يكاد القلب ينجل أمام هذا الكرم. نحن لا نملك أصلاً شيئاً مستقلاً عن الله، ومع ذلك يعاملنا سبحانه معاملة من له شيء قدمه، ويكتب لنا ثواب العطاء، بل يضاعفه. أعطاك القدرة على الكسب، وأعطاك المال، وأعطاك القلب الذي رق، وأعطاك الهداية إلى البذل، ثم أثابك على ذلك كله كأن البداية منك.

وهذا من المعاني التي تغيّر نظرة الإنسان إلى الطاعة كلها؛ أنت لا تدخل مع الله في معاملة متكافئة، بل في بحر من الفضل يحيط بك من أول الطريق إلى آخره. هداك إلى الخير، ثم نسب إليك فعله، ثم أثابك عليه، ثم ضاعف الثواب، ثم غفر لك نقصك.

وتأمل قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾. ليست كل صورة من صور العطاء متساوية؛ يمكن للإنسان أن يعطي ويفسد عطاءه بالمن، أو بالرياء، أو بالإذلال، أو بطلب السمعة، فيخرج المال ولا يتحرر القلب. أما القرض الحسن فهو المال الذي يخرج نظيفاً من شوائب الاستعلاء، لأن صاحبه يعرف أنه ليس أفضل من المحتاج ل مجرد أنه أعطاه، بل ربما كان المحتاج باباً فتحه الله للمعطي لينجوه من شبح نفسه.

ثم: ﴿يَضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾. الإنسان يرى ما خرج من يده، والله يرى ما عاد إليه. وهذه مشكلة الرؤية القصيرة؛ نحن نحس النقص الفوري ولا نرى الزيادة الغيبية، ولذلك

نحتاج إلى إيمان. قد تعطي فتشعر أن رصيدك نقص، لكن القرآن يقول: الحساب لم ينته عند اللحظة التي خرج فيها المال. هناك ميزان آخر، وهناك يدٌ لا تضع عندها الودائع.

ولم تقل الآية: يضاعفه لكم فقط، بل أضافت: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. هنا يصبح الإنفاق مرتبطاً بما هو أعظم من المال: المغفرة. أنت تعطي جزءاً من مال فان، ويفتح لك الله به باباً إلى تنظيف صحيفة لا يستطيع مال الدنيا كله أن يشتري صفحة واحدة بيضاء منها يوم القيامة.

ثم يأتي الاسمان العجيبان في هذا السياق: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. «شكور»؛ وهو سبحانه غني عن عملنا، ومع ذلك يشكر القليل ويضاعفه. نحن المحتاجون إليه، ثم هو الذي يسمي نفسه شكوراً لعباده! يعطيك النعمة، ثم إذا استخدمتها في رضاه شكرك عليها. وأي كرم بعد هذا؟

و«حليم»؛ لأنه يعلم كم تتأخر، وكم تتردد، وكم يغلبنا الشح، وكم نعرف ثم لا نفعل، ومع ذلك لا يعاجلنا بما نستحق، بل يترك الباب مفتوحاً، ويعيد الدعوة، ويوقظ القلب مرة بعد مرة. ولو عاملنا الله بأول لحظة بخل، وأول تردد، وأول غفلة، لضاعت بنا سبل النجاة، لكنه حليم.

ثم تختم السورة بآيتين تعيداننا من تفاصيل الحياة كلها إلى الحقيقة التي بدأت منها:

﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كأن السورة بعدما أخذتنا في هذه الرحلة أرادت ألا ينتهي نظرنا عند أنفسنا، بل أن ينتهي إلى الله. إنه عالم الغيب والشهادة؛ يعلم ما أعطيت وما أمسكت، ويعلم لماذا أعطيت ولماذا أمسكت، يعلم الفعل الذي رآه الناس والنية التي لم يروها، يعلم المصيبة قبل أن تنزل، ويعلم ما فعلت المصيبة في قلبك، يعلم خوفك على أولادك، وتعلقك بمالك، ومقدار جهادك لشح نفسك، ويعلم من كل صفقة في حياتك ما لا تعلمه أنت عنها.

وقد بدأت السورة بعلم الله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ثم قالت: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وها هي تختم بـ ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ كأن العلم الإلهي سور يحيط بالسورة كلها. ومن هنا نفهم لماذا لا يمكن أن يقع التغابن الحقيقي في حساب الله؛

لأن الغبن يحتاج إلى جهل بالقيمة، والله يعلم كل شيء. البشر فقط هم الذين يخطئون التسعير لأنهم يرون بعض المشهد، أما الله فيعرف البداية والنهاية والظاهر والباطن. ثم ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ الذي لا يُغلب، ولا يخرج شيء من ملكه، ولا يستطيع أحد أن يمنع حكمه حين يأتي. وهذا الاسم يعيدنا إلى القدرة التي افتتحت بها السورة: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فلا البعث يعجزه، ولا الحساب، ولا حفظ الأعمال، ولا رد الحقوق، ولا مضاعفة الحسنات.

ثم ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ وهنا يبدأ السؤال الطويل الذي رافق السورة. إذا كان ما يصيب من مصيبة بإذن الله، وإذا كانت الحياة مليئة بأقذار لا نفهمها، وإذا كان المال والولد فتنة، وإذا تأخر الحساب إلى يوم التغابن، فمن وراء هذا كله؟ الحكيم. ليست الحياة تحت سلطان قدرة عارية من الحكمة، بل تحت تدبير من اجتمع له العز والحكمة. وكم يحتاج المؤمن أن يجمع في قلبه هذين الاسمين: العزيز الحكيم. فإذا رأى شيئاً لا يستطيع دفعه، تذكر العزيز؛ وإذا لم يفهم لماذا وقع، تذكر الحكيم. فليس كل ما عجزت عن تغييره خارجاً عن السيطرة، وليس كل ما عجزت عن فهمه خالياً من الحكمة.

خاتمة

قبل أن يُفتح دفتر الأرباح الأخير

هكذا تنتهي سورة التغابن، لكنها لا تنتهي في القلب بسهولة؛ لأنها بعد ثماني عشرة آية فقط تكون قد غيّرت معنى كلمات كنا نظن أننا نعرفها: الملك، والريح، والخسارة، والمصيبة، والأهل، والمال، والإنفاق، والفلاح. تدخل إليها وأنت تحمل ميزان الدنيا، ثم تخرج منها وقد وضع القرآن في يدك ميزاناً آخر.

تبدأ السورة بكون يسبح حتى لا تنوهم أن حياتك بلا مركز، ثم تقول لك إن الملك كله لله حتى لا تظن أنك تملك الأشياء ملكاً نهائياً، ثم تذكر بأنك مخلوق ممتحن حتى لا تجعل وجودك بلا مسؤولية، وتخبرك أن السماوات والأرض خلقتا بالحق حتى لا تقرأ الحياة بوصفها عبثاً، ثم تضع أمامك تاريخ من كذبوا حتى لا تظن أن السنن القديمة ماتت، ثم تقسم لك على البعث حتى لا تعيش وكأن القبر يحو الحساب، ثم ترفع أمامك اسم اليوم: يوم التغابن.

ولعل سر اختيار هذا الاسم أن الإنسان يعيش حياته كلها ككاجر، وإن لم يقف في سوق. كل يوم يبيع شيئاً ليشتري شيئاً آخر، يعطي من عمره ليحصل على مال، ومن راحته ليحصل على مكانة، ومن ماله ليحصل على متعة، وقد يعطي من ضميره ليحصل على رضا الناس، أو من دينه ليحتفظ بمصلحة، أو من شهوته ليشتري رضا الله. كل اختيار تبادل، وكل قرار صفقة.

وسورة التغابن تسأل: هل تعرف قيمة ما تبيع؟

ربما كان أكبر غبن أن تبيع ما لا يعود بشيء ينتهي، وأن تنفق سنوات عمرك لتحصل على شيء ستفارقه في لحظة، وأن تعمي صورتك أمام البشر حتى تخسر حقيقتك عند الله. وربما كان أعظم الريح أن تنازل عن شيء أحببتَه لأن الله أحب منك غيره، وأن تمنع نفسك من لذة قصيرة لأنك أبصرت ما وراءها، وأن تعطي من مالك وأنت تعرف أن الذي بقي في يدك ليس بالضرورة هو الذي بقي لك.

وحين تحدثت السورة عن المصيبة، لم تقل إن الإيمان يعفك منها؛ بل أعطتك شيئاً أثمن: هداية القلب. وحين حدثتك عن الأهل، لم تأمر أن تتركهم؛ بل أن تحبهم دون أن تجعل محبتهم فوق الله. وحين حدثتك عن المال، لم تطلب منك أن تتركه؛ بل ألا تدعه يملكك. وحين حذرتك من الشح، كشفت لك أن أخطر خصم في صفقة العمر قد لا يكون عدواً خارجك، بل نفساً تخشى أن تعطي فتفقر، فإذا هي تمسك فتفتقر.

وهنا يكتمل المعنى: من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. كأن الفلاح هو أن تنجو من سجن نفسك، وأن تسع رؤيتك حتى لا تقيس الربح بما يدخل يدك فقط، بل بما يخرج منها لله، ولا تقيس الخسارة بما يفوتك من الدنيا، بل بما يفوتك من القرب. ولعل القارئ إذا أراد أن يحمل من هذه السورة جملة واحدة بعد أن يغلق صفحات هذا الكتاب، فلتكن هذه: لا تحكم على صفقات حياتك قبل يوم التغابن. قد يكون ما تبكي على فقدته الآن حماية لك، وما نتعب في بذله الآن مدخراً لك، وما يراك الناس خاسراً بسببه هو رأس مالك الحقيقي عند الله.

سيأتي يوم تنتهي فيه كل المقارنات، ويقف الإنسان أمام دفتر لا يهمه حينها كم كان الناس يظنونهم ناجحاً، بل كم كان ناجحاً. هناك ستسقط أسعار كثيرة، وسترتفع قيم أشياء كانت تمر في الدنيا بصمت؛ ركعتان في ظلمة الليل، صدقة لم يعلم بها أحد، شهوة انتصرت عليها لله، دعة خشية، كلمة حق دفعت ثمنها، عفو كان الانتقام فيه أسير، مال خرج من يدك وبقي في آخرتك، وصبر حمل قلبك حين نزلت المصيبة.

وهناك، في اليوم الذي يكشف فيه الجميع قيمة ما عاشوا له، لن يسأل الإنسان: كم ملكت؟ بل ماذا قدمت؟ ولن يكون السؤال: كم بقي في يدك؟ بل ماذا بقي لك؟ ومن أجل ذلك كله، ربما لم تكن سورة التغابن سورة عن يوم القيامة فحسب؛ إنها سورة تعلمك كيف تعيش قبل القيامة، كيف تنتظر، وكيف تحب، وكيف تخاف، وكيف تفقد، وكيف تعطي، وكيف تحفظ قلبك من أن يشتري الرخيص بالغالي.

فطوبى لمن عرف أسعار الأشياء قبل أن يغلق السوق.

وطوبى لمن رأى يوم التغابن بعين الإيمان قبل أن يراه بعين اليقين.

وطوبى لمن خرج من الدنيا وقد خسر منها ما شاء الله أن يخسر، لكنه لم يخسر الله.